آخر الليل

١٩٦٧

تحت الشبابيك العتيقة

١- الجرح القديم

واقفٌ تحتَ الشّبابيكِ،

على الشّارعِ واقفْ

درجاتُ السلّمِ المهجورِ لا تعرفُ خطوِي

لا ولا الشبّاك عارفْ.

من يدِ النخلةِ أصطادُ سحابهْ

عندما تسقطُ في حلقِي ذبابهْ

وعلى أنقاض إنسانيتي

تعبُرُ الشمسُ وأقدامُ العواصفْ

واقفٌ تحتَ الشّبابيكِ العتيقهْ

من يدِي يهربُ دُوريٌّ وأزهارُ حديقهْ

اسأليني: كم من العمرِ مضى

حتى تلاقي كلُّ هذا اللون والموت،

تلاقي بدقيقهْ؟

وأنا أجتازُ سرداباً من النسيان،

والفلفل، والصوت النحاسي

من يدِي يهربُ دُوريٌّ..

وفي عيني ينوب الصمتُ عن قول الحقيقهْ!

عندماتنفجرُ الريح بجلدي

وتكفُّ الشمسُ عن طهوِ النّعاسْ

وأسمّي كلّ شيءٍ باسمه،

عندها أبتاعُ مفتاحاً شباكا جديدا

بأناشيد الحماسْ!

- أيها القلبُ الذي يُحرم من شمس النهارْ

ومن الأزهارِ والعيدِ، كفانا!

علمونا أن نصون الحبَّ بالكره!

وأن نكسو ندى الورد.. غبارْ!

- أيها الصوتُ الذي رفرفَ في لحمي

عصافيرَ لهبْ،

علّمونا أنْ نُغنّي، ونحب

كلَّ ما يطلعه الحقلُ من العشبْ،

من النملِ، وما يتركه الصيفُ من أطلالِ دار

علّمونا أنْ نُغنّي، ونداري

حُبَّنا الوحشيَّ، كي لا

يصبحَ الترنيمُ بالحبِّ مملاًّ!

عندما تنفجرُ الرّيحُ بجلدي

سأسمّي

كلَّ شيء باسمه

وأدقُّ الحزنَ الليل بقيدي

يا شبابيكي القديمة..!

٢- أغنية حبّ على الصليب

مدينة كل الجروح الصغيرة

ألا تُخمدين يديَّ؟

ألا تبعثين غزالا إليَّ؟

وعن جبهتي تنفضين الدخان.. وعن رئتيَّ؟!

حنيني إليك.. اغتراب

ولقياكِ.. منفى!

أدقُّ على كل باب..

أنادي، وأسألُ، كيفَ

تصيرُ النّجومُ تراب؟

أحبُّكِ، كوني صليبي

وكوني، كما شئتِ، بُرْجَ حمامْ

إذا ذوّبتني يداك

ملأتُ الصحارى غمام

لحُبّكِ يا كلَّ حُبّي، مذاقُ الزبيبْ

وطعمُ الدّمِ

على جبهتي قمر لا يغيب

ونارٌ وقيثارة في فمي!

إذا متُّ حُبّاً فلا تدفنيني

وخلّي ضريحي رموش الرّياح

لأزرع صوتك في كلّ طين

وأشهر سيفك في كل ساح

أحبُّكِ، كوني صليبي

وما شئتِ كوني

وكالشمس ذوبي

بقلبي.. ولا ترحميني..



٣- خارج من الأسطورة

إنّني أنهضُ من قاع الأساطيرِ

وأصطادُ على كلِّ السّطوح النائمة

خطوات الأهل والأحباب.. أصطاد نجومي القاتمة

إنّني أمشي على مهلي، وقلبي مثل نصف البرتقالة

وأنا أعجب للقلب الذي يحمل حاره

وجبالاً، كيف لا يسأمُ حاله!

وأنا أمشي على مهلي.. وعيني تقرأ الأسماءَ

والغيمُ على كل الحجارة

وعلى جيدك يا ذات العيون السود

يا سيفي المذهّبْ

ها أنا أنهضُ من قاع الأساطير.. وألعبْ

مثل دُوريٍّ على الأرضِ... وأشرب

من سحاب عالق في ذيل زيتون ونخلِ

ها أنا أشتَمُّ أحبابي وأهلي

فيكِ، يا ذات العيون السود.. يا ثوبي المقصّب

لم تزلْ كفّاك تُليِّنُ من الخُضرة، والقمح المذهَّبْ

وعلى عينيكِ ما زال بساطُ الصحو

بالوشم الحريريِّ.. مكوكب!

إنّني أقرأُ في عينيكِ ميلاد النهارْ

إنّني أقرأُ أسرار العواصف

لم تشيخي.. لم تخوني.. لم تموتي

إنّما غيّرتِ ألوان المعاطف

عندما انْهارَ الأحبّاءُ الكبار

وامتشقنا، لملاقاة البنادق

باقة من أغنيات وزنابق!

آه.. يا ذاتِ العيون العيون السّود، والوجه المعقّرْ

يشربُ الشارعُ والملحُ دمي

كلما مرّت على بالي أقمارُ الطّفولهْ

خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلهْ

خلفَ أسواركِ، ربَّيتُ عصافيري

ونحلي، ونبيذي، وخميلهْ

٤- اعتذار

حلمتُ بعرسِ الطفولهْ

بعينين واسعتين حلمتُ

حلمتُ بذاتِ الجديلهْ

حلمتُ بزيتونة لا تباع

ببعض قروش قليلهْ

حلمتُ بأسوارِ تاريخكِ المستحيلهْ

حلمتُ برائحة اللوز

تشعلُ حزن الليالي الطويلهْ

بأهلي حلمتُ..

بساعد أختي

سيلتفُّ حولي وشاحَ بطولهْ

حلمتُ بليلة صيف

بسلّة تين

حلمتُ كثيراً

كثيراً حلمتُ..

إذنْ سامحيني!!.

٥- المستحيل

أموتُ اشتياقاً

أموتُ احتراقاً

وشنقاً أموتُ

وذبحاً أموتُ

ولكنّني لا أقولُ:

مضى حُبُّنا، وانقضى

حُبُّنا لا يموتُ

٦- الورد والقاموس

وليكن.

لا بدّ لي..

لا بدّ للشاعرِ من نخبٍ جديدْ

وأناشيد جديده

إنّني أحملُ مفتاح الأساطير وآثار العبيدْ

وأنا أجتازُ سردابا من النسيان

والفلفل، والصيف القديم

وأرى التّاريخ في هيئة شيخ،

يلعبُ النردَ ويمتصُّ النّجوم

وليكنْ

لا بدّ لي أن أرفضَ الموت،

وإن كانت الأساطيرُ تموت

إنّني أبحثُ في الأنقاضِ عن ضوء، وعن شِعرٍ جديدْ

آه.. هل أدركتُ قبل اليوم

أنّ الحرف في القاموس، يا حُبّي، بليد

كيف تحيا كلُّ هذي الكلمات!

كيف تنمو؟.. كيف تكبر؟

نحن مازلنا نغذيها دموع الذكريات

واستعارات.. وسكّر!

وليكن..

لا بدّ لي أن أرفض الورد الذي

يأتي من القاموس، أو ديوان شعر

يَنبتُ الوردُ على ساعد فلاّح، وفي قبضة عامل

يَنبتُ الوردُ على جرح مقاتل

وعلى جبهة صخر..



٧- وعود من العاصفة

وليكن...

لا بدّ لي أن أرفض الموت

وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفهْ

وأعرّي شجر الزيتون من كل الغصون الزّائفهْ

فإذا كنت أغنّي للفرحْ

خلف أجفان العيون الخائفهْ

فلأنّ العاصفهْ

وعدتني بنبيذ.. وبأنخاب جديدهْ

وبأقواس قزح

ولأنّ العاصفهْ

كنست صوت العصافير البليده

والغصون المستعارهْ

عن جذوع الشجرات الواقفهْ

وليكن..

لا بدَّ لي أن أتباهى، بك، يا جرح المدينهْ

أنت يا لوحة برق في ليالينا الحزينهْ

يعبس الشارع في وجهي

فتحميني من الظل ونظرات الضغينهْ

سأغني للفرحْ

خلف أجفان العيون الخائفهْ

منذ هبّت، في بلادي، العاصفهْ

وعدتني بنبيذ، وبأقواس قزح



موال :

خسرت حلما جميلا،

خسرت لسع الزنابق

و كان ليلي طويلا،

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيلا

لقد تعوّد كفّى،

على جراح الأماني

هزي يدي بعنف.. ينساب نهر الأغاني

يا أم مهري و سيفي !

_يمّا.. مويل الهوى

_يمّا ..مويليا

"ضرب الخناجر.. و لا

"حكم النذل فيّا

*

يداك فوق جبيني،تاجان من كبرياء

إذا انحنيت ،انحنى ، تل وضاعت سماء

ولا أعود جديرا بقبلة أو دعاء

و الباب يوصد دوني

كوني على شفتيا اسما لكل الفصول

لم يأخذوا من يديّا ، إلا مناخ الحقول

و أنت عندي دنيا !

"يمّا.. مويل الهوى

"يمّا.. مويليا

"ضرب الخناجر.. و لا

"حكم النذل فيّا

*

الريح تنعس عندي .. على جبين ابتسامة

و القيد خاتم مجد ، و شامة للكرامة

و ساعدي.. للتحدي

على يديك تصلي طفولة المستقبل

وخلف خفنيك، طفلي يقول: يومي أجمل

و أنت شمسي و ظلي

*

"يمّا.. مويل الهوى

"يمّا.. مويليا

"ضرب الخناجر.. و لا

"حكم النذل فيّا

الأرض ،أم أنت عندي أم أنتما توأمان

مد مدّ للشمس زندي؟ الأرض، أم مقلتان

سيان سيان.. عندي

*

إذا خسرت الصديقة فقدت طعم السنابل

و إن فقدت الحديقة ضيّعت عطر الجدائل

و ضاع حلم الحقيقة

*

عن الورد أدافع شوقا إلى شفتيك

وعن تراب الشوارع خوفا على قدميك

و عن دفاعي أدافع

*

"يمّا..مويل الهوى

"يما.. مويليا

"ضرب الخناجر.. و لا

"حكم النذل فيّا

لا تنامي حبيبتي

عندما يسقط القمر

كالمرايا المحطمه

يكبر الظلُّ بيننا

والأساطير تحتضر

لا تنامي.. حبيبتي

جرحنا صار أوسمه

صار ورداً على قمر !...

خلف شباكنا نهارْ

وذراع من الرضا

عندما لفني وطار

خلتُ أني فراشةٌ

في قناديل جلّنارْ

وشفاهٌ من الندى

حاورتني بلا حوارْ !

لا تنامي.. حبيبتي

خلف شباكنا نهار !

سقط الورد من يدي

لا عبير، ولا خَدَرْ

لا تنامي.. حبيبتي

العصافير تنتحرْ

ورموشي سنابلٌ

تشرب الليلَ والقدرْ

صوتك الحُلوُ قبلةٌ

وجناحٌ على وترْ

غُصنُ زيتونةٍ بكى

في المنافي على حجرْ

باحثاً عن أصولهِ

وعن الشمس والمطرْ

لا تنامي .. حبيبتي

العصافير تنتحر

عندما يسقط القمر

كالمرايا المحطمه

يشرب الظل عارنا

ونداري فرارنا

يصبح الحب ملحمه

لا تنامي .. حبيبتي

جرحنا صار أوسمه

ويدانا على الدجى

عندليبٌ على وترْ

كبر الأسير

تتموّج الذكرى، وبياراتُ أهلي

خلف نافذة القطارْ

وتغوص، تحت الرمل والبارود، دارْ

كل النوافذ أشرعت في ذات يوم

للعيون السود، واحترق النهار

وَلَعاً بساحتك الصغيره

وأنا كبرتُ.. كبرت ..

حطّمتُ المرايا كلها،

ونفضتُ أجنحة الغبارْ

عن جنة نبتت بصوره

ورأيت وجهك في السنابل

وهي تبحر في سماء الضوء

في فرح الضفيره

يا حبي الباقي على لحمي هلالاً في إطار !

أترى إلى كل الجبال، وكل بيارات أهلي

كيف صارت كلها.. صارت أسيره؟

وأنا كبرت، كبرتُ يا حبي القديم مع الجدار

كبر الأسير، وأنت توقدُ

في ليالي التيه أغنيةً ونار

وتموت، وحدك، دون دار

ريتا والبندقية

بين ريتا وعيوني.. بندقيهْ

والذي يعرف ريتا ، ينحني

ويصلي

لإلهٍ في العيون العسليّهْ !

..وأنا قبّلت ريتا

عندما كانت صغيره

وأنا أذكر كيف التصقتْ

بي، وغطّت ساعدي أحلى ضفيره

وأنا أذكر ريتا

مثلما يذكر عصفورٌ غديره

آه .. ريتا

بيننا مليون عصفور وصوره

ومواعيد كثيره

أطلقتْ ناراً عليها.. بندقيّهْ

إسمُ ريتا كان عيداً في فمي

جسم ريتا كان عرساً في دمي

وأنا ضعت بريتا .. سنتين .

وهي نامت فوق زندي سنتين

وتعاهدنا على أجمل كأس ، واحترقنا

في نبيذ الشفتين

وولدنا مرتين !

آه .. ريتا

أي شيء ردّ عن عينيك عينيَّ

سوى إغفائتين

وغيوم عسليّهْ

قبل هذي البندقيهْ !

كان يا ما كان

يا صمت العشيّهْ

قمري هاجر في الصبح بعيداً

في العيون العسليّهْ

والمدينة

كنست كل المغنين ، وريتا

بين ريتا وعيوني . بندقيّهْ

جندي يحلم بالزنابق البيضاء

يحلم بالزنابق البيضاء

بغصن زيتون ..

بصدرها المورق في المساء

يحلم_ قال لي _بطائر

بزهر ليمون

و لم يفلسف حلمه ل،م يفهم الأشياء

إلا كما يحسّها.. يشمّها

يفهم_ قال لي_ إنّ الوطن

أن أحتسي قهوة أمي

أن أعود في المساء ..

سألته: و الأرض؟

قال: لا أعرفها

و لا أحس أنها جلدي و نبضي

مثلما يقال في القصائد

و فجأة، رأيتها

كما أرى الحانوت..و الشارع.. و الجرائد

سألته: تحبها

أجاب: حبي نزهة قصيرة

أو كأس خمر.. أو مغامرة

_من أجلها تموت ؟

_كلا !

و كل ما يربطني بالأرض من أواصر

مقالة نارية.. محاضرة !

قد علّموني أن أحب حبّها

و لم أحس أن قلبها قلبي،

و لم أشم العشب، و الجذور، و الغصون ..

_و كيف كان حبّها

يلسع كالشموس ..كالحنين؟

أجابني مواجها :

_و سيلتي للحب بندقية

وعودة الأعياد من خرائب قديمة

و صمت تمثال قديم

ضائع الزمان و الهوية !

حدّثني عن لحظة الوداع

و كيف أمّة

تبكي بصمت عندما ساقوه

إلى مكان ما من الجبهة ..

و كان صوت أمه الملتاع

يحفر تحت جلده أمنية جديدة :

لو يكبر الحمام في وزارة الدفاع

لو يكبر الحمام ..!

..دخّن، ثم قال لي

كأنه يهرب من مستنقع الدماء :

حلمت بالزنابق البيضاء

بغصن زيتون ..

بطائر يعانق الصباح

فوق غصن ليمون ..

_وما رأيت؟

_رأيت ما صنعت

عوسجة حمراء

فجرتها في الرمل.. في الصدور.. في البطون ..

_و كم قتلت ؟

_يصعب أن أعدهم ..

لكنني نلت وساما واحدا

سألته، معذبا نفسي، إذن

صف لي قتيلا واحدا .

أصلح من جلسته ،وداعب الجريدة المطويّة

و قال لي كأنه يسمعني أغنية :

كخيمة هوى على الحصى

و عانق الكوكب المحطمة

كان على جبينه الواسع تاج من دم

وصدره بدون أوسمة

لأنه لم يحسن القتال

يبدو أنه مزارع أو عامل أو بائع جوال

كخيمة هوى على الحصى ..و مات ..

كانت ذراعاه

ممدودتين مثل جدولين يابسين

و عندما فتّشت في جيوبه

عن اسمه، وجدت صورتين

واحد ..لزوجته

واحد.. لطفله ..

سألته: حزنت؟

أجابني مقاطعا يا صاحبي محمود

الحزن طيّر أبيض

لا يقرب الميدان. و الجنود

يرتكبون الإثم حين يحزنزن

كنت هناك آلة تنفث نارا وردى

و تجعل الفضاء طيرا أسودا

حدثني عن حبه الأول،

فيما بعد

عن شوارع بعيدة،

و عن ردود الفعل بعد الحرب

عن بطولة المذياع و الجريدة

و عندما خبأ في منديله سعلته

سألته: أنلتقي

أجاب: في مدينة بعيدة

حين ملأت كأسه الرابع

قلت مازحا.. ترحل و.. الوطن ؟

أجاب: دعني ..

إنني أحلم بالزنابق البيضاء

بشارع مغرّد و منزل مضاء

أريد قلبا طيبا، لا حشو بندقية

أريد يوما مشمسا، لا لحظة انتصار

مجنونة.. فاشيّة

أريد طفلا باسما يضحك للنهار،

لا قطعة في الآله الحربية

جئت لأحيا مطلع الشموس

لا مغربها

ودعني، لأنه.. يبحث عن زنابق بيضاء

عن طائر يستقبل الصباح

فوق غصن زيتون

لأنه لا يفهم الأشياء

إلاّ كما يحسّها.. يشمّها

يفهم_ قال لي_ إن الوطن

أن أحتسي قهوة أمي ..

أن أعود، آمنا مع، المساء



أغنية ساذجة عن الطيب الأحمر

هل لكل الناس، في كل مكان

أذرع تطلع خبزا و أماني

و نشيدا وطنيا؟

فلماذا يا أبي نأكل غصّن السنديان

و نغني، خلسة، شعرا شجيا؟

يا أبي! نحن بخير و أمان

بين أحضان الصليب الأحمر !

عندما تفرغ أكياس الطحين

يصبح البدر رغيفا في عيوني

فلماذا يا أبي، بعت زغاريدي وديني

بفتات و بجبن أصفر

في حوانيت الصليب الأحمر؟

با أبي! هل غاية الزيتون تحمينا إذا جاء المطر؟

و هل الأشجار تغنينا عن النار، و هل ضوء القمر

سيذيب الثلج، أو يحرق أشباح الليالي

إنني أسأل مليون سؤال

و بعينيك أرى صمت الحجر

فأجبني، يا أبي أنت أبي

أم تراني صرت إبنا للصليب لبأحمر؟ !

يا أبي هل تنبت الأزهار في ظل الصليب ؟

هل يغني عندليب

فلماذا نسفوا بيتي الصغيرا

و لماذا، يا أبي، تحلم بالشمس إذا جاء المغيب؟

و تناديني، تناديني كثيرا

و أنا أحلم بالحلوى و حبات الزبيب

في دكاكين الصليب الأحمر

حرموني من أراجيح النهار

عجنوا بالوحل خبزي ورموشي بالغبار

أخذوا مني حصاني الخشبي

جعلوني أحمل الأثقال عن ظهر أبي

جعلوني أحمل الليلة عام

آه من فجرني في لحظة جدول نار ؟

آه، من يسلبني طبع الحمام

تحت أعلام الصليب الأحمر

ملاحظة على الأغنية

أخذوا منك الحصان الخشبي

أخذوا، لا بأس ظل الكوكب

يا صبي !

يا زهرة البركان، يا نبض يدي

إنني أبصر في عينيك ميلاد الغد

وجوادا غاص في لحم أبي

نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيّا

قل مع القائل:.. لم أسألك عبئا هينا

يا إلهي! أعطني ظهرا قويا !..

أخذوا بابا.. ليعطوك رياح

فتحوا جرحا ليعطوك صباح

هدموا بيتا لكي تبني وطن

حسن هذا.. حسن

نحن أدري بالشياطين التي تجعل من طفل نبيّا

قل مع القائل ل:..م أسألك عبئا هينا

يا إلهي! أعطني ظهرا قويا!..

أزهار الدم

١- مغنى الدم

لمغنّيك، على الزيتون، خمسون وتر

و مغنيك أسير كان للريح، و عبدا للمطر

و مغنيك الذي تاب عن نوم تسلّى بالسهر

سيسمي طلعة الورد، كما شئت، شرر

سيسمّي غابة الزيتون في ، ميلاد سحر

و سيبكي، هكذا اعتاد

إذا مرّ نسيم فوق خمسين وتر

آه يا خمسين لحنا دمويا

كيف صارت لركة الدمّ نجوما و شجر؟

الذي مات هو القاتل يا قيثارتي

و مغنيك انتصر !

إفتحي الأبواب يا قريتنا

إفتحيها للرياح الأربع

ودعي خمسين جرحا يتوهّج

كفر قاسم ..

قرية تحلم بالقمح ،و أزهار البنفسج

و بأعراس الحمائم

....

_أحصدوهم دفعة واحدة

أحصدوهم

....

.......حصدوهم ...

....

آه يا سنبلة القمح على صدر الحقول

و مغنيك يقول :

ليتني أعرف سر الشجره

ليتني أدفن كل الكلمات الميته

ليت لي قوة صمت المقبرة

يا يدا تعزف، يا للعار! خمسين وتر

ليتني أكتب بالمنجل تاريخي

و بالفأس حياتي،

وجناح القبره

....

كفر قاسم

إنني عدت من الموت لأحيا، لأغني

فدعيني أستعر صوتي من جرح توهّج

و أعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي

و أمشي ..

ثم أمشي ..

و أقاوم!



٢- حوار في تشرين

أحاور ورقة توت :

_و من سوء حظ العواصف أنّ المطر

يعيدك حيّه ،

و أن ضحيتها لا تموت

و أن الأيادي القويّة

تكبلها بالوتر !

سأدفع مهر العواصف

مزيدا من الحب للوردة الثاكله

و أبقى على قمة التل واقف

لأفضح سر الزوابع.. للقافلة

أحاور هبّة ريح :

إذا هاجر الزراع الأول

وعاث بحنطة القاتل

و إن قتلوه كما قتلوني

فلن تحملي الأرض يوما

و لن تنزعي جلدها عن جفوني

سأدفع مهر العواصف

مزيدا من الحب للوردة الثاكله

و أبقى على قمة التل واقف

لأفضح سر العواصف.. للقافلة !

أحاور روح الضحيّة :

و من سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حيّة ..

و من حسن حظك أنك أنت الضحيّة

هلا.. يا هلا.. بالمطر!



٣- الموت مجاناً

كان الخريف يمرّ في لحمي جنازة برتقال ..

قمرا نحاسيا تفتته الحجارة و الرمال

و تساقط الأطفال في قلبي على مهج الرجال

كل الوجوم نصيب عيني ..كل شيء لا يقال ..

و من الدم المسفوك أذرعة تناديني: تعال !

فلترفعي جيدا إلى شمس تحنّت بالدماء

لا تدفني موتاك!.. خليهم كأعمدة الضياء

خلي دمي المسفوك.. لافته الطغاة إلى المساء

خليه ندا للجبال الخضر في صدر الفضاء !

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليل الخميله

شرف الطفولة أنها

خطر على أمن القبيلة

إني أباركهم بمجد يرضع الدم و الرذيلة

و أهنيء الجلاد منتصرا على عين كحيلة

كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديلة

مرحى لفاتح قرية!.. مرحى لسفاح الطفوله ..!

يا كفر قاسم!.. إن أنصاب القبور يد تشدّ

و تشد للأعماق أغراسي و أغراس اليتامى إذ تمد

باقون.. يا يدك النبيلة، علمينا كيف نشدو

باقون مثل الضوء، و الكلمات، لا يلويهما ألم و قيد

يا كفر قاس !

إن أنصاب القبور يد تشد!..



٤- القتيل رقم ١٨

غابة الزيتون كانت مرة خضراء

كانت ..و السماء

غابة زرقاء.. كانت حبيبي

ما الذي غيرّها هذا المساء؟

....

أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب

و كانوا هادئين

و أداروا إلى الشرق.. و كانوا هادئين

....

كان قلبي مرة عصفور زرقاء.. يا عش حبيبي

و مناديلك عندي، كلها بيضاء، كانت حبيبي

ما الذي لطّخها هذا المساء؟

أنا لا أفهم شيئا يا حبيبي !

....

أوقفوا سيارة العمال في منتصف الدرب

و كانوا هادئين

و أداروا إلى الشرق.. و كانوا هادئين

....

لك مني كلّ شيء

لك ظل لك ضوء

خاتم العرس، و ما شئت

و حاكورة زيتون و تين

و سآتيك كما في كل ليلة

أدخل الشبّاك، في الحلم، و أرمي لك فله

لا تلمني إن تأخرت قليلا

إنهم قد أوقفوني

غابة الزيتون كانت دائما خضراء

كانت يا حبيبي

إن خمسين ضحيّة

جعلتها في الغروب ..

بركة حمراء.. خمسين ضحيّة

يا حبيبي.. لا تلمني ..

قتلوني.. قتلوني ..

قتلوني..

٥- القتيل رقم ٤٨

وجدوا في صدره قنديل ورد.. و قمر

وهو ملقى، ميتا، فوق حجّر

وجدوا في جيبه بعض قروش

وجدوا علبة كبريت،و تصريح سفرّ ..

و على ساعده الغض نقوش .

قبلته أمّه ..

و بكت عاما عليه

بعد عام، نبت العوسج ىفي عينيه

و اشتدّ الظلام

عندما شبّ أخوه

و مضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة

حبسوه ..

لم يكن تصريح سفر

إنه يحمل في الشارع صندوق عفونه

و صناديق أخر

آه: أطفال بلادي

هكذا مات القمر!

٦- عيون الموتى على الأبواب

مروا على صحراء قلبي ، حاملين ذراع نخلة

مرّوا على زهر القرنفل، تاركين أزير نحلة

و على شبابيك القرى رسموا، بأعينهم أهله

و تبادلوا بعض الكلام

عن المحبة و المذلة

ماذا حملت لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم

غير المزيد، من النشيد ،عن الحمائم ..

و الجماجم..؟

هي لا تريد.. و لا تعيد

رثاءنا.. هي لا تساوم

فوصية الدم تستغيث بأن تقاوم

في الليل دقوا كا باب ..

كل باب.. كل باب

وتوسلوا ألا نهيل على الدم الغالي التراب

قالت عيونهم التي انطفأت لتشعلنا عتاب :

لا تدفنونا بالنشيد، و خلدونا بالصمود

إنّا نسمّد لبراعم الضوء الجديد

يا كفر قاسم !

من توابيت الضحايا سوف يعلو

علم يقول: قفوا! قفوا !

و استوقفوا !

لا :لا تذلوا !

دين العواصف أنت قد سدّدته ،

و انهار ظلّ

يا كفر قاسم! لن ننام.. و فيك مقبرة و ليل

ووصية الدم لا تساوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم

أن نقاوم..

السجين والقمر

في آخر الليل التقينا تحت قنطرة الجبال

منذ اعتقلت، و أنت أدرى بالسبب

الآنّ أغنية تدافع عن عبير البرتقال

و عن التحدي و الغضب

دفنوا قرنفلة المغني في الرمال؟

علمان نحن، على تماثيل الغيوم الفستقية

بالحب محكومان، باللون المغني؟

كلّ الليالي السود تسقط في أغانينا ضحية

و الضوء يشرب ليل أحزاني و سجني

فتعال، ما زالت لقصتنا بقية !

سأحدث السّجان، حين يراك

عن حب قديم

فلربما وصل الحديث بنا إلى ثمن الأغاني

هذا أنا في القيد أمتشق النجوم

و هو الذي يقتات، حرا من دخاني

و من السلاسل و الوجوم !

كانت هويتنا ملايينا من الأزهار،

كنا في الشوارع مهرجان

الريح منزلنا،

وصوت حبيبتي قبل .

و كنت الموعدا

لكنهم جاؤوا من المدن القديمة

من أقاليم الدخان

كي يسحبوها من شراييني،

فعانقت المدى .

و الموت و الميلاد في وطني المؤله توأمان !

ستموت يوما حين تغنينا الرسوم عن الشجر

و تباع في الأسواق أجنحة البلابل

و أنا سأغرق في الزحام غدا، و أحلم بالمطر

و أحدث السمراء عن طعم السلاسل

و أقول موعدنا القمر!

يوم

منذ الظهيرة، كان وجه الأفق

مثل جبينك الوهميّ ،يغطس في الضباب

و الظلّ يجمد في الشوارع

مثل وقفتك الأخيرة عند بابي

و خطاك تعبر، في مكان ما، كهمس في اغترابي !

يا أيّها اليوم المسافر في الرمال

أتكن لي بعض المودة؟ !

الظل يسند جبهتي

و الأفق يشرب من نبيذ الشمس

ما شربت يدي،

في ذات يوم،

من ضفائر شعرك المشدود في جرح الغد

و الظل يشربني كما شربت عيونك

ضوء آخر موعد

يا أول الليل الذي اشتعلت يداه برتقال

أتكنّ لي بعض المودّة؟؟

الباب يغلق مرة أخرى، ووجهك ليس يأتي

و أنا و أنت مسافران.. و لا جئان، أنا و أنت

ماذا تسر لك الكوكب؟.. إنها من دون بيت؟

لا تسمعيها !

كان فحم الليل يرسمها على تمثال صمت

و أنا و أنت ،أنا و أنت

شفتا حنين كان ملح الانتظار طعامنا

و صداك صوتي

و الباب يغلق مرة أخرى، ووجهك ليس يأتي

يا ليل، يا فرس الظلال ..

أتكن لي بعض المودّة؟؟

لا تتركيني

وطني جبينك، فاسمعيني

لا تتركيني

خلف السياج

كعشبة برية ،

كيمامة مهجورة

لا تتركيني

قمرا تعيسا

كوكبا متسولا بين الغصون

لا تتركيني

حرا بحزني

و احبسيني

بيد تصبّ الشمس

فوق كوى سجوني ،

وتعوّدي أن تحرقيني،

إن كنت لي

شغفا بأحجاري بزيتوني

بشبّاكي.. بطيني

وطني جبينك، فاسمعيني

لا تتركيني!

إلى ضائعة

إذا مرت على وجهي

أنامل شعرك المبتل بالرمل

سأنهي لعبتي.. أنهي

و أمضي نحو منزلنا االقديم

على خطى أهلي

و أهتف يا حجارة بيتنا ا صلّى !

إذا سقطت على عيني

سحابة دمعة كانت تلف عيونك السوداء

سأحمل كل ما في الأرض من حزن

صليبا يكبر الشهداء

عليه و تصغر الدنيا

و يسقي دمع عينيك

رمال قصائد الأطفال و الشعراء !

إذا دقت على بابي

يد الذكرى

سأحلم ليلة أخرى

بشاعرنا القديم و عودة الأسرى

و أشرب مرة أخرى

بقايا ظلك الممتد في بدني

و أومن أن شباكا

ضغيرا كان في وطني

يناديني و يعرفني

و يحميني من الأمطار و الزمن

أغنيات إلى الوطن

1. جَبينٌ وَغضَبٌ

وطني! يا أيّها النّسرُ الذي يغمد منقار اللّهبْ

في عيوني،

أينَ تاريخُ العربْ؟

كلُّ ما أملكُهُ في حضرةِ المةتِ:

جبينٌ وغضبْ.

وأنا أوصيتُ أن يزرعَ قلبي شجرهْ

وجبيني منزلاً للقبّرهْ.

وطني، إنّا وُلدنا وكبُرنا بجراحكَ

وأكلنا شجرَ البَلُّوطِ..

كي نشهدَ ميلادَ صباحكَ

أيها النسرُ الذي يرسفُ في الأغلالِمن دون سببْ

أيها الموتُ الخُرافيُّ الذي كانَ يُحبْ

لم يزلْ منقاركَ الأحمرُ في عينيَّ

سيفاً من لهبْ..

وأنا لستُ جديراً بجناحكَ

كلُّ ما أملكهُ في حضرة الموتِ:

جبينٌ وغضبْ!

2. وَطـنٌ

علّقوني على جدائلِ نخلهْ

واشنُقُني.. فلن أخون النّخلهْ!

هذه الأرضُ لي.. وكنتُ قديماً

أحلبُ النّوقَ راضياً ومولّهْ

وطني ليسَ حِزمة من الحكاياَ

ليسَ ذكرى، وليسَ حقل أهِلّهْ

وطني ليسَ قصّةً أو نشيداً

ليسَ ضوءاً على سوالف فُلّهْ

وطني غَضْبةُ الغريبِ على الحزن

وطفلٌ يريد عيداً وقُبْلهْ
ورياحٌ ضاقتْ بحجرة سجن

وعجوزٌ يبكي بَنيه.. وحقلهْ

هذه الأرضُ جلدُ عضمي
وقلبي..

فوق أعشابها يطير كنحلهْ

علّقوني على جدائلِ نخلهْ
واشنُقُوني فلن أخونَ النّخله!

٣. لاَ مَفَرٌّ

مطرٌ على أشجارهِ ويدي على

أحجارهِ، والملحُ فوق شفاهي

من لي بشُبّاك يقي جمرَ الهَوَى

من نسمةٍ فوق الرّصيفِ اللاهي؟

وطني! عُيونُكَ أمْ غيومٌ ذوَّبتْ

أوتارَ قلبي في جراحِ إلهِ!

هلْ تأخُذَنَّ يدي؟ فسُبحانَ الذي

يحمي غريباً من مذلّة آهِ

ظِلُّ الغريبِ على الغريبِ عباءةٌ

تحميهِ من لسع الأسى التيّاهِ

هل تُلقِيَنَّ على عراء تسولي

أستار قبر صارَ بعض ملاهي

لاَ شمَّ رائحة الذين تنفَّسوا

مهدي.. وعطرُ البرتقالِ الساهي

وطني! أُفتّشُ عنكَ فيكَ فلا أرى

لاّ شقوق يديكَ فوق جباهِ

وطني أتفتحُ في الخرائبِ كوة؟

فالملحُ ذابَ على يَدي وشِفاهِي

مطرٌ على الإسفلتِ، يجرفني إلى

ميناءِ موتانا.. وجُرحُكَ نَاهِ

٤. رَدُّ الفِعْلِ

وطني! يعلمني حديدُ سلاسلي
عنفَ النسورِ و رقّةَ المتفائلِ

ما كنتُ أعرفُ أنَّ تحتَ جلودنا
ميلادُ عاصفةٍ... وعرسُ جداولِ

سدّوا عليَّ النورَ في زنزانةٍ
فتوهّجتْ في القلبِ شمسُ مشاعلِ

كتبوا على الجدرانِ رقمَ بطاقتي
فنما على الجدرانِ مرجُ سنابلِ

رسموا على الجدرانِ صورةَ قاتلي
فمحتْ ملامحَها ظلالُ جدائلِ

وحفرتُ بالأسنانِ رسمكِ دامياً
وكتبتُ أغنيةَ العذابِ الراحلِ

أغمدتُ في لحمِ الظلامِ هزيمتي
وغرزتُ في شعرِ الشموسِ أناملي

والفاتحونَ على سطوحِ منازلي
لم يفتحوا إلا وعودَ زلازلي!

لن يبصروا إلا توهّجَ جبهتي
لن يسمعوا إلا صريرَ سلاسلي

فإذا احترقتُ على صليبِ عبادتي
أصبحتُ قدّيساً بزيِّ مقاتلِ

<u>٥. المَوْعِدُ</u>

لم تزلْ شُرفةٌ.. هناك
في بلادي، ملوحهْ
ويَدٌ تمنحُ الملاك
أغنيَاتٍ، وأجنِحهْ
العصافيرُ أمْ صداك
أمْ مواعيدُ مُفرحهْ
قَتَلْتَنِي.. لِكَيْ أراكْ؟!

*

وطني! حُبنا هلاك
والأغاني مُجرحهْ
كلما جاءني نِداكْ
هجرَ القلبُ مطرحهْ
وتلاقي على رُباك
بالجُروحِ المفتحهْ
لاَ تلُمني ففي ثراك
أصبحَ الحُبُّ.. مَذْبَحَهْ!

٦. أُحُبُّكَ أَكْثرَ

تَكَبَرْ.. تَكَبَرْ!

فمهما يكنْ من جَفاك

ستبقى، بعيني ولحمي، ملاك

وتبقى، كما شاء لي حُبّنا أن أراك

نسميكَ عنبرْ

وأرضكَ سُكّرْ

وإنّي أُحبّكَ.. أكثرْ

يداكَ خَمائلْ

ولاكنني لا أُغنّي

ككل البلابلْ

فإن السلاسلْ

تُعلّمني أن أقاتلْ

أقاتلْ.. أقاتلْ

لأنّي أحبُّكَ أكثرْ!

غنائي خناجرُ وردْ

وصمتي طفولة رعدْ

وزنبقة من دماء

فُؤادي،

وأنتَ الثّرى والسّماء

وقلبُكَ أخْضرْ..!

وجَزْرُ الهوى، فيكَ، مَدّ

فكيفَ، إذنْ، لا أُحبكَ أكثرْ

وأنتَ، كما شاء لي حبُّنا أن أراكَ:

نُسمِّيكَ عنبر

وأرضُكَ سُكَّر

وقلبكَ أخضر..!

وإنِّي طفلُ هواكَ

على حُضْنِكَ الحُلْوِ

أنْمُو وأكبُرْ!

<u>ألأغنية والسلطان</u>

لم تكن أكثر من وصف.. لميلاد المطر

و مناديل من البزق الذي يشعل أسرار الشجر

فلماذا قاموها؟

حين قالت إن شيئا غير هذا الماء

يجري في النّهر؟

و حصى الوادي تماثيل، و أشياء أخر

و لماذا عذبوها

حين قالت إن في الغابة أسرارا .

و سكينا على صدر القمر

ودم البلبل مهدور على ذاك الحجر؟

و لماذا حبسوها

حين قالت: و طني حبل عرق

و على قنطرة الميدان إنسان يموت

و ظلام يحترق ؟

غضب السلطان

و السلطان مخلوق خيالي

قال: إن العيب في المرآة ،

فليخلد إلى الصمت مغنيكم، و عرشي

سوف يمتد

من النيل إلى نهر الفرات !

أسجنوا هذي القصيدة

غرفة التوقيف

خير من نشيد.. و جريدة

أخبروا السلطان،

أن الريح لا تجرحها ضربة سيف

و غيوم الصيف لا تسقي

على جدرانه أعشاب صيف

و ملايين من الأشجار

تخضر على راحة حرف !

غضب السلطان، و السلطان في كل الصور

و على ظهر بطاقات البريد

كالمزامير نقيّ و على جبهته وشم العبيد ،

ثم نادى.. و أمر :

أقتلوا هذي القصيدة

ساحة الإعدام ديوان الأناشيد العنيده !

أخبروا السلطان،

أن البرق لا يحبس في عود ذره

للأغاني منطق الشمس ،و تاريخ الجداول

و لها طبع الزلازل

و الأغاني كجذور الشجرة

فإذا ماتت بأرض،

أزهرت في كل أرض

كانت الأغنية الزرقاء فكره

حاول السلطان أن يطمسها

فغدت ميلاد جمره !

كانت الأغنية الحمراء جمره

حاول السلطان أن يحبسها

فإذا بالنار ثوره !

كان صوت الدم مغموسا بلون العاصفة

و حصى الميدان أفواه جروح راعفه

و أنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح

عندما قاومني السلطان

أمسكت بمفتاح الصباح

و تلمست طريقي بقناديل الجراح

آه كم كنت مصيبا

عندما كرست قلبي

لنداء العاصفة

فلتهبّ العاصفة !

و لتهبّ العاصفة!

